الباب الثانى

قبل أجممنون

الفصل الأول

شليمان

فى عام ١٨٢٢ ولد فى ألمانيا صبى قدر له أن يكتب بمعوله صفحة من أروع صفحات علم الآثار فى القرن التاسع عشر . وكان والده مولعاً بالتاريخ القديم ، فنشأه على حب قصص هومر عن حصار طروادة ، وتجوال أديسيوس ، « ولشد ما كان يحزننى أن أسمع منه أن طروادة قد دمرت عن آخرها تدميراً تاماً ، وأنها محيت من الوجود دون أن تخلف وراءها أثراً يدل عليها » (١) . ولما بلغ هنريخ شليمان الثامنة من عمره وفكر فى الأمر تفكيراً أوفى من تفكيره الأول أعلن أنه سيهب حياته للكشف عن المدينة المفقودة ؛ وفى العاشرة من عمره عرض على أبيه قصة لاتينية عن حرب طروادة . وفى عام ١٨٣٦ غادر المدرسة بعد أن حصل فيها علماً أرقى مما تطيقه موارده ، واشتغل صبياً عند بقال ، وفى عام ١٨٤١ خرج من همبرج خادماً على ظهر سفينة تجارية مسافرة إلى أمريكا الجنوبية ، وبعد اثنى عشر يوماً من مغادرة السفينة الميناء غرقت ، وظل بحارتها تسع ساعات فى قارب صغير تتقاذفهم الأمواج حتى ألقت بهم على سواحل هولندة . واشتغل هنريخ كاتباً ، وكان يكسب من عمله مائة وخمسين ريالا أمريكيا فى العام ، ينفق نصفها فى شراء الكتب ويعيش على نصفها الآخر وعلى أحلامه .

وأثمر ذكاؤه وجده ثمرتهما الطبيعية ؛ فلما أن بلغ الخامسة والعشرين كان تاجراً له مصالح مالية فى ثلاث قارات ؛ ولما بلغ السادسة والثلاثين أحس بأنه قد حصل من المال كفايته فاعتزل التجارة ووهب وقته كله لعلم الآثار . « لقد كنت وأنا فى غمرة الأعمال التجارية دائم التفكير فى طروادة أو فيما قطعته لوالدى من عهد على أن أكشف عن آثارها(*) » (٣) .

وقد اعتاد فى أثناء اشتغاله بالتجارة أن يتعلم لغة كل بلد يتجر معه ، وأن يكتب بهذه اللغة ما يتصل بأعماله فى مفكرته اليومية (٤) . وبهذه الطريقة تعلم اللغات الإنجليزية ، والفرنسية ، والهولندية ، والأسبانية ، والبرتغالية ، والإيطالية ، والروسية ، والسويدية ، والبولندية ، والعربية . ثم ذهب إلى بلاد اليونان ودرس فيها لغة الكلام الحية ، وسرعان ما أصبح فى مقدوره أن يقرأ اليونانية القديمة والحديثة بنفس السهولة التى يقرأ بها الألمانية . فلما تم له ذلك أعلن : « إنى لا أستطيع أن أعيش بعد الآن فى غير أرض اليونان القديمة »(٦) . ولما أبت زوجته الروسية أن تغادر روسيا أعلن فى الصحف رغبته فى الزواج بيونانية ، ووصف بغاية الدقة كل ما يتطلبه فى هذه الزوجة ، ثم اختار فى السابعة والأربعين من عمره عروساً فى التاسعة عشرة من بين الصور الشمسية التى أرسلت إليه . ولم يكد

(*) وقد كتب شليمان يقول : « ولكنى أستطيع تعلم المردات ايونانية بسرعة حصلت على ترجمة يونانية حديثة ، ابول وفرجينى وقرأتها من أولها إلى آخرها ، وقابلت كل كلمة بأختها فى الأصل الفرنسى . فلما فرغت من هذا العمل عرفت على الأقل نصف ما يحتويه الكتاب من المفردات اليونانية ، وبعد أن كررت هذه العملية نفسها مرة أخرى عرفتها كلها ، أو كدت ، من غير أن أضيع دقيقة واحدة فى ابحث عن هذه المفردات فى معاجم اللغة ... أما النحو اليونانى فلم أتعلم منه إلا علامات الإعراب والأفعال ، ولم أضيع وقتى الثمين فى تعلم قواعده لأنى رأيت أن التلاميذ بعد أن يلاقوا العذاب ثمانى سنين أو أكثر منها يكدحون فى تعلم قواعد النحو اليونانى ، يخرجون من المدرسة وليس منهم من يستطيع أن يكتب خطاباً باللغة اليونانية القديمة دون أن يرتكب فيه مائة من الأغلاط . ولهذا أيقنت أن الطريقة التى يتبعها المدرسون فى تعليم تلك اللغة خاطئة من أولها إلى آخرها .. أما أنا فقد تعلمت اللغة اليونانية القديمة كما لو كنت أتعلم لغة من اللغات الحية »

obeikandi.com

يرى صاحبة الصورة حتى تزوجها من فوره ، وتزوجها بطريقة الشراء القديمة دون أن يعنى بمعرفة حقيقة أمرها ، وطلب إليه أبواها ثمناً يتناسب مع ما يعرفان من ثرائه . ولما ولدت له زوجته طفلين ، لم يرض أن يعمدهما إلا إلا مكرهاً ، ولكنه كان فى أثناء الاحتفال يضع نسخة من الإلياذة فوق رأسيهما ويقرأ منها مائة بيت بصوت عال . وسمى هؤلاء الأبناء أندروماك ، وأجمنون . وسمى خادميه تلامون Telamon ، وبلوبس Pelops ، وأطلق على بيته فى أثينة اسم بلروفون Bellerophon[٧] . لقد كان شليمان شيخاً افتتن بهومر إلى حد الجنون .

وفى عام ١٨٧٠ ذهب إلى الأرض المحيطة بطروادة — وهى الطرف الشمالى الغربى من آسية الصغرى — وأصر رغم آراء جميع العلماء فى ذلك الوقت على أن طروادة پريام مدفونة تحت التل المسمى حصار لك . واستطاع بعد مفاوضات دامت عاماً كاملا أن يحصل من الحكومة العثمانية على إذن بالحفر فى هذا الموقع ، واستأجر ثمانين عاملا وبدأ العمل . وكانت زوجته ، التى تحبه لما يتصف به من شذوذ ونزوات ، تشترك معه فى كدحه فى الأرض من مطلع الشمس إلى مغيبها . وظلت العواصف الثلجية تهب من الشمال طوال الشتاء وتقذف الثرى فى وجهيهما ، وكانت الرياح تندفع بقوة من ثغرات كوخهما الضعيف فلا يستطيعان أن يحتفظا فيه بمصباح مضىء أثناء الليل . « ولم يكن لدينا ما يدفئنا إلا تحمسنا لعملنا العظيم ألا وهو كشف طروادة »[٨] .

ومر عام كامل دون أن تثمر جهودهما ثمرة ما . ثم أخذت فأس أحد العمال تكشف ضربة فى إثر ضربة عن وعاء نحاسى كبير ، ولما فتح هذا الوعاء تكشف عن كنز مدهش ثمين مكون من تسعة آلاف تحفة مختلفة من الفضة والذهب . وكان شليمان ماكراً فأخفى الكنز فى لفاعة زوجته ، وصرف العمال على غير انتظار منهم لكى يستريحوا ، وأسرع إلى كوخه ، وأغلق

عليه الباب ، وبسط الكنز الثمين أمامه على المنضدة ، ووصل ما بين كل قطعة منه وبين فقرة فى شعر هومر ، وحلى رأس زوجته بجوهرة قديمة وأرسل إلى أصدقائه فى أوربا يبلغهم أنه كشف عن « كنز پريام »[٩] : لكن أحداً منهم لم يصدقه ، واتهمه بعض النقاد بأنه وضع بنفسه الأشياء التى كشفها فى المكان الذى استخرجها منه ، ورفع الباب العالى فى الوقت نفسه قضية عليه يتهمه بالاستيلاء على الذهب من أرض تركية . لكن بعض العلماء أمثال فرشاو Virchow ، ودورپفلد Dörpfeld وبرنوف Burnouf هرعوا إلى موضع الحفر ، وحققوا أقوال شليمان ، ووصلوا العمل معه حتى كشفوا عن طروادة مدفونة بعد طروادة ؛ ولم تبق المشكلة القائمة بعدئذ هل كانت هناك طروادة أو لم تكن ، بل أصبحت محصورة فى أى الطروادات التسع التى كشفت هى التى تطلق عليها الإلياذة اسم إليوس .

وفى عام ١٨٧٦ اعتزم شليمان أن يحقق ملحمة هومر من ناحية أخرى — وهى أن يثبت أن أجمنون كان هو أيضاً شخصاً حقيقياً . واسترشد فى عمله بوصف پوسنياس القديم لبلاد اليونان(*) ، فاحتفر أربعا وثلاثين فجوة فى ميسينى الواقعة فى شرق البلوپونيز . وقطع عليه الموظفون الأتراك عمله بأن طالبوه بنصف الكنوز التى كشفها فى طروادة ؛ ولم يشأ هو أن يترك « كنز پريام » فى تركيا مختفياً عن الأنظار ، فأرسله سراً إلى متحف الدولة فى برلين ، وأدى للباب العالى خمسة أمثال ما طلبه من تعويض ، وواصل أعمال الحفر فى ميسينى . وكان النجاح فى هذه المرة أيضاً حليفه ، ولما أن أبصر عماله يحملون إليه هياكل بشرية ، وفخاراً ، وأقنعة ذهبية ، أبرق إلى ملك اليونان يقول إنه كشف قبرى أتريوس وأجمنون[١٠] . وفى عام ١٨٨٤ انتقل إلى تيرينز Tiryns واسترشد فى عمله هنالك

(*) لقد طاف بوسنياس ببلاد اليونان فى عام ١٦٠ م ووصفها فى كتابه المسمى Periegesis أى الرحلة .

أيضاً بيوسنياس ، وكشف عن القصر العظيم وعن الأسوار الضخمة التى وصفها هومر(١١) .

ولسنا مبالغين إذا قلنا إنه قلما خدم أحد علم الآثار كما خدمه شليمان . لقد كان هذا الرجل متصفا بعيوب فضائله ، ذلك أن حماسته كانت تدفعه إلى العجلة والتهور فى عمله ، فأدى ذلك به إلى إتلاف كثير من الأشياء التى عثر عليها أو خلطها بعضها ببعض لكى يحقق بسرعة الهدف الذى كان يعمل لتحقيقه . يضاف إلى هذا أن الملحمتين اللتين كانتا تهديانه فى عمله قد أضلتاه فحسب أنه كشف عن كنز پريام فى طروادة ، وعن قبر أجمنون فى ميسينى . وارتاب العلماء فى أنحاء العالم فى تقاريره وظلت متاحف إنجلترا ، وروسيا ، وفرنسا زمناً طويلا لا تصدق أن ماكشفه آثار قديمة بحق ؛ وكان فى هذه الأثناء يعزى نفسه بما ناله من مكانة عظمى فى عينه هو ، ويواصل الحفر بشاعة حتى أقعده المرض . وتحير فى آخر أيامه هل يصلى إلى إله المسيحيين أو إلى زيوس إله اليونان الأقدمين ؛ وكتب إلى ابنه يقول : « إلى أجمنون شليمان أحب الأبناء أرسل تحياتى ، وإنى ليسرنى أنك ستدرس أفلوطرخس ، وأنك فرغت من زنوفون . . . . . وإنى لأدعو أبانا زيوس وپلاس أثينة أن يجزياك من الصحة والسعادة ما يعادل جهودك مائة مرة »(١٢). وتوفى عام ١٨٩٠ بعد أن أنهكه الكدح فى الحر والبرد ، وقاسى ما قاسى من عداوة العلماء ، ومن حمى أحلامه التى لم تفارقه فى يوم من الأيام .

لقد كشف شليمان — كما كشف كولمبس — عن عالم أشـــد غرابة من العالم الذى كان يبحث عنه ، فلقد كانت هذه الجواهر أقدم بمئات السنين من پريام وهكيبا Hecuuba : ولم تكن تلك القبور قبور أتريدا ، بل كانت أطلال حضارة إيجية قامت فى أرض اليونان الأصلية ، قديمة قدم العصر المينوى فى كريت ، ولقد حقق شليمان ، دون أن يعرف ، بيت هوراس

الذائع الصيت « لقد عاش قبل أجممنون كثيرون من الرجال البواسل »(*) .
وكلما توسع دورپفلد ، وملر Muller وتسونتاس Tsountas واستاماتاكس Stamatakis ، وولدشتين Waldstein ، وويس Wace فى أعمال الحفر فى أرض الپلوپونيز ، وواصل غيرهم الحفر فى أتكا وفى جزائر عوبيه Euboea وبوئتيا Boeotia ، وفوسيس Phocis وفى تساليا ، تكشفت أرض اليونان عن بقايا ثقافة قامت فيها فى أزمنة ما قبل التاريخ . وفى هذه الثقافة ارتقى الناس أيضاً من الهمجية إلى الحضارة بانتقالهم من حياة الصيد البدوية إلى حياة الاستقرار والأعمال الزراعية ، وباستبدال النحاس والبرنز بالحجارة ، وبما يسرته لهم الكتابة والتجارة من وسائل التقدم . إن الحضارة على الدوام أقدم مما نتصور ، وتحت كل شبر من الأرض نطؤه بأقدامنا عظام رجال ونساء عملوا وأحبوا كما نعمل نحن ونحب ، وكتبوا الأغانى وصنعوا الجميل من الأشياء ؛ ولكن أسماءهم وحيواتهم نفسها قد ضاعت على مر الزمان الذى لا يحفل قط بالرجال والنساء .

(*) وكاد دورپفلد وفرشاو يقنعانه فى أواخر أيامه بأنه لم يكشف عن بقايا أجممنون بل كشف عن جيل من الناس أقدم منه كثيراً . وبعد أن أظهر شليمان الشيء الكثير من الألم المبرح تقبل قولهما قبولا حسناً وصاح قائلا : « ماذا تقولان ؟ إذن فليس هذا جسم أجممنون ، وليست هذه حليته ؟ فليكن ، ولنسمه إذن شلز Schulz ، وظلوا من ذلك الحين يتحدثون باسم « شلز »(١٣).

obeikandi.com

الفصل الثانى

قصور الملوك

على تل منخفض طويل ، على بعد خمسة أميال شرق أرجوس ، وعلى بعد ميل واحد فى شمال البحر ، كان يقوم فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد قصر تيرينز الحصين . ويستطيع الإنسان أن يصل إلى خرائب هذا القصر بعد رحلة ممتعة من أرجوس أو نوبليا Nsuplia ، ويشهد هذه الخرائب التى تكاد تضيع معالمها بين حقول القمح والذرة الهادئة الساكنة . فإذا صعد السائح قليلا فوق درجات حجرية باقية من أزمنة ما قبل التاريخ ، وقف أمام الجدران الضخمة السيكلوبية التى بنيت كما تقول الرواية اليونانية للأمير الأرجوسى بروتوس Proetus قبل حرب طروادة بمائتى عام(*) . ولقد كانت المدينة حتى فى ذلك الزمن البعيد قديمة العهد ، فقد شادها كما تقول الرواية القديمة المأثورة البطل تيرينز بن أرجس Argus ذو المائة عين ، والعالم لا يزال فى طفولته(١٤) . وتضيف القصـــة إلى ذلك أن پروتيوس أهدى القصر إلى پرسيوس الذى حكم تيرينز مع الملكة أندرمدا Andromeda الحمراء .

وكان ارتفاع الأسوار التى تحمى المدينة بين عشرين وخمسين قدماً ، وقد بلغ من سمكها أن كانت تحتوى فى بعض المواضع على معارض واسعة ذات قباب وعقود فيها قطع حجرية ضخمة مركبة بعضها فوق بعض فى وضع أفقى ،

(*) كان اليونانيون يصفون الصروح بأنها سيكلوبية إذا كانت حسب ما يتصوره خيالهم المولع بالأساطير لا يستطيع بناءها إلا المردة الجبابرة أمثال سيكلوبس (أى صاحب العين المستديرة) الأعور الذى كان يكدح بكير هباستوس **Hephoestus** فى براكين البحر المتوسط . ثم أصبح هذا الاسم يطلق فى هندسة البناء على الأحجار التى تشاد بلا ملاط وإن نحتت نحتاً غير متقن . ويملأ ما بينها بالحصا المخلوط بالطين . وتضيف الرواية إلى هذا أن پوروس قد جاء بالبنائين المشهورين المسمين سيكلوبس من لوسيا **Lycia** .

ولاتزال بعض هذه الحجارة فى أماكنها حتى الآن ، والكثير منها يبلغ طوله ست أقدام وعرضه ثلاثا وسمكه مثلها ، أما أصغرها فيقول پوستياس « إنه يصعب على اثنين من البغال أن يحركاها من أماكنها »[١٥] . وكان فى داخل الأسوار ، وراء مدخل شيد على نمط كثير من مداخل الحصون فناء واسع مرصوف ، حوله طائفة من الأعمدة ، ومن حول هذه الأعمدة عدد كبير من الحجرات شبيهة بحجرات كنوسس ، تجتمع حول بهو فخم تبلغ سعته ألفا وثلثمائة قدم مربعة ، أرضه مرصوفة بالأسمنت المطلى وسقفه مقام على أربعة عمد بينها موقد . وهنا وجد مبدأ جرت عليه العمائر اليونانية يختلف عما كان متبعاً فى كريت وهو فصل الجناح الذى تقيم فيه النساء عن حجرات الرجال . فقد كانت حجرة الملك وحجرة الملكة متجاورتين ولكنهما — على قدر ما نستطيع أن نستدل عليه من آثارهما — منفصلتان إحداهما عن الأخرى، كل الانفصال ولا صلة بينهما من داخلهما . ولم يعثر شليمان من هذا القصر الحصين إلا على أساس الطابق الأرضى ، وقواعد الأعمدة ، وأجزاء من الجدران . وفى أسفل التل وجدت بقايا البيوت المقامة من الحجارة أو الآجر ، والقناطر ، وقطع من الفخار القديم . وفى هذا الموضع كانت مدينة تيرنز فى عهد ما قبل التاريخ تتقارب بيوتها لتحمى نفسها تحت أسوار القصر . ذلك أنه لا مفر لنا من أن نتصور بلاد اليونان فى عصر البرنز تحيا حياة غير آمنة حول هذه القلاع الإقطاعية وفى داخلها .

وعلى بعد عشرة أميال فى شمال هذه المدينة شاد پرسيوس (إذا أردنا أن نصدق قول پوسنياس)[١٦] مدينة ميسينى — أعظم عواصم اليونان قبل التاريخ . وهنا أيضاً نشأت حول قلعة منيعة مدينة من عدة قرى ، تضم عدداً من السكان النشيطين زراع ، وتجار ، وصناع ، ورقيق ، كانوا سعداء لأنهم ليس لهم تاريخ . وبعد ستمائة عام من ذلك الوقت وصف هومر ميسينى بأنها « مدينة حسنة البناء واسعة الطرقات ، موفورة الذهب »[١٧] . ولقد أبقى الزمان

على أجزاء من هذه الجدران الضخمة رغم ما مر بها من مئات الأجيال التى تكفى لتخريب أقوى الصروح ؛ وإن ما بقى منها ليشهد برخص الأيدى العاملة وعدم اطمئنان الملوك على أنفسهم فى تلك الأيام . وفى ركن من أركان السور يوجد باب الأسد الشهير ، وهناك فوق أسكفة ضخمة نحت على حجر مثلث الشكل أسدان كبيران أبلاهما الزمان وحطم رأسيهما ، وأبقى على جسميهما ليحرسا وهما صامتان ذلك المجد العتيد الزائل . وعلى الرابية القريبة من هذا الباب ترى أطلال القصر . وفى وسعنا أن نفعل هنا ما فعلناه فى تيرينز فنتبين فيها حجرة العرش ، وحجرات المخازن ، وحجرة النوم ، وحجرات الاستقبال . وهنا كانت فى غابر الأيام أرضيات منقوشة ، ومداخل ذات عمد ، وجدران ذات مظلمات ، وسلالم فخمة .

وقد كشف عمال شليمان ، بالقرب من باب الأسد فى بقعة ضيقة تحيط بها دائرة من القطع الحجرية المسطحة ، عن تسعة عشر هيكلا عظمياً ، وعن عاديات قيمة ثمينة لا يسع من يراها إلا أن يغفر لهذا الهاوى العظيم ظنه أن هذه الحفر هى الحجرات التى دفن فيها أبناء أتريوس . كيف لا وقد وصف پوسنياس القبور الملكية بأنها « فى أطلال ميسينى ؟ »[١٨] لقد كان من بين هذه الهياكل العظمية جماجم رجال عليها تيجان من الذهب ، وعلى عظام وجوهها أقنعة ذهبية ؛ وكان من بينها هياكل سيدات لهن تيجان من الذهب كن يلبسنها على رؤوسهن التى لم يبق لها وجود . ومن بين ما وجد فى هذه المقابر آنية عليها رسوم جميلة ، وجفان من البرنز ، وكأس من فضة ، ورؤوس من الكهرمان والجمست ، وأدوات من المرمر والعاج والخزف ، وخناجر وسيوف مزخرفة ، ولوحة للعب شبيهة بالتى وجدت فى كنوسس ، وكل ما يستطيع أن يتصوره الإنسان من الأدوات مصنوعة من الذهب الخالص — أختام وخواتم ، ودبابيس ، ومشابك ، وأقداح ، وخرز وأساور ، ودروع ، وآنية للزينة ، وأثواب مزركشة بصفائح رفيعة من الذهب[١٩] وليس ثمة شك فى أن هذه الجواهر جواهر ملوك . وأن هذه العظام عظام ملوك .

وقد كشف شليمان وغيره من العلماء فى سفح التل المقابل للسفح الذى شيد عليه هذا الحصن ، تسعة قبور تختلف كل الاختلاف عن « القبور البئرية » . فإذا ما خرج الإنسان عن الطريق النازل من القلعة دخل عن يمينه دهليزاً على جانبيه جدران من الحجارة الكبيرة الجيدة القطع . وفى آخر الدهليز مدخل بسيط كان يزدان فيما مضى بعمودين أسطوانيين رفيعين من الرخام الأخضر محفوظين فى المتحف البريطانى الآن ، ومن فوق العمودين أسكفة بسيطة من حجرين طول أحدهما ثلاثون قدما ووزنه ١١٣ طناً . فإذا اجتاز السائح هذا المدخل ألفى نفسه تحت قبة ارتفاعها خمسون قدما وقطرها خمسون ، وجدرانها من الحجارة المنشورة ، مقواة بصفائح من البرنز نقش عليها الورد ، وتركب كل طبقة من الحجارة على ما تحتها حتى تسد أعلى الطبقات قمة القبة . وقد اعتقد شليمان أن هذا الصرح العجيب هو قبر أجممنون ، ولم يتردد فى أن يصف قبة أخرى أصغر من هذه وجدت إلى جوارها وكشفتها زوجته بأنها قبر كليتمنسترا Clytaemnestra . وكانت كل القبور التى وجدت فى ميسنى والتى تشبه خلية النحل فى كثرتها خالية ، لأن اللصوص سبقوا علماء الآثار إليها بعدة قرون .

وهذه الآثار الدارسة شواهد باقية على حضارة كانت قديمة فى أيام بركليز قدم شليمان إلينا نحن . ويرجع المؤرخون المحدثون تاريخ المقابر البئرية إلى عام ٦٠٠٠ ق . م (أى قبل التاريخ الذى يحددونه لأجممنون بأربعمائة عام) ، أما المقابر التى فى الجهة الأخرى من التل فيرجع تاريخها فى زعمهم إلى حوالى عام ١٤٥٠ ، ولكن تأريخ ما قبل التاريخ عملية بعيدة كل البعد عن الدقة . ولسنا نعرف كيف بدأت هذه الحضارة ، كما لا نعرف من هم أولئك الأقوام الذين شادوا مدائن فى موضعى ميسينى وتيرينز ، بل وفى مواضع اسبارطة ، وأمكلى Amyclae وإيجينا Aegina ، وإليوزيس Eleusis ، وقيرونيا Chaeronia ، وأرثومينوس Orthomenos ودلفى . وأكبر الظن أن هؤلاء الأقوام كانوا كغيرهم من الأمم قد أصبحوا خليطاً من

سلالات مختلفة ، ورثوا ثقافات متعددة ؛ فلقد كانت بلاد اليونان مختلطة دماء أهلها قبل غزو الدورين (١١٠٠ ق . م) اختلاط دماء سكان إنجلترا قبل فتح النورمان . ومبلغ ما نستطع أن نهتدى إليه بظننا أن الميسينيين كانوا يمتون بصلة القرابة العنصرية للفريجيين والكاريين سكان آسية الصغرى ، وللمينويين سكان كريت[٢٠] . وللأسدين اللذين وجدا فى ميسينى وجهان شبيهان بآساد أرض النهرين ، ولعل هذه الفكرة القديمة قد انتقلت إلى هذه البلاد عن طريق أشور وفريجيا[٢٠] .

وتسمى الرواية التاريخية الميسينيين باسم « پلاسجى » Pelasgi (وربما كان معناه أهل البحر — پلاجوس Pelagos) ، وكانوا يصورونهم كأنهم آتون من تراقية وتساليا إلى أتكا والپلوپونيز فى زمن يبلغ من القدم حداً جعل اليونان يطلقون عليهم اسم السكان الأصليين ، أوتوكتنوى Autochthonoi وقد صدق هيرودوت هذه القصة وقال إن الآلهة الأولمپية من أصل پلاسجى ولكنه « لا يستطيع أن يقول وهو واثق ماذا كانت لغة الپلاسجى »[٢١] ولسنا نحن أكثر منه علما بها .

وما من شك فى أن أولئك الأوتوكتنويين قد قدموا فى عصر متأخر إلى أرض كانت تزرع من أيام العصر الحجرى الحديث ؛ ذلك أنه لا يوجد فى بلد من بلاد العالم سكان أصليون . وقد غلبهم على مر الزمان أقوام آخرون ، وشاهد ذلك أننا نجد فى العصور المتأخرة من تاريخ الميسينيين حوالى عام ١٦٠٠ ق . م دلائل كثيرة على غزوة تجارية ثقافية ، إن لم تكن سياسية عسكرية ، لأرض الپلوپونيز ، من حاصلات كريت أو من مهاجريها[٢٢] . وحجتنا فى هذا القول أن قصور تيرينز وميسينى قد خططت وزينت على غرار القصور المينوية إذا استثنينا أقسام النساء فى الأولى وهى التى لا نظير لها

فى الثانية . يضاف إلى هذا أن الآنية والأنماط الفنية الكريتية وصلت إلى إيجينيا وكلسيس Chalcis وطيبة ، وأن سيدات ميسينى وإلاهاتها قد قلدن الطراز الكريتى الساحر فى الملبس والزينة ، وأن الفن الذى كشف عنه فى القبور البئرية المتأخرة مينوى بلا ريب(٢٣) . وجلى أن اتصال المينيين بحضارة أرقى من حضارتهم كان له فيهم أثر حافز قوى ، وأنه هو الذى رفع ميسينى إلى أرقى ما وصلت إليه حضارتها .

obeikandl.com

الفصل الثالث

الحضارة الميسينية

إن ما لدينا من آثار هذه الحضارة أقل من أن يمكننا من أن نصورها فى صورة واضحة وضوح الحضارات التى تتكشف عنها خربات كريت أو أشعار هومر . ولكننا نستطيع أن نقول عنها إن الحياة فى أرض اليونان القارية كانت أقرب إلى مرحلة الصيد من الحياة فى كريت ، وإن ما نجده بين بقايا الآثار الميسينية من عظام الظباء ، والخنازير البرية ، والمعز ، والضأن ، والأرانب ، والثيران ، والخنازير — بل عظام السمك والأصداف البحرية — ليدل على أن شهوة الطعام بين أولئك القوم قد وصلت إلى المرحلة التى يصفها لنا هومر ، والتى لا تلائم خصر الكريتيين النحيل . وتكشف الآثار فى أماكن متفرقة عما بين أساليب الحياة « القديمة » و« الحديثة » من تشابه عجيب ، فقد نجد سهماً من الحجر الزجاجى إلى جانب مثقب برنزى أجوف كان يستعمل فى عمل ثقوب فى الحجارة للأوتاد[٢٤] .

أما الصناعة فلم تكن متقدمة تقدمها فى كريت ، فلسنا نجد فى أرض اليونان القارية مراكز صناعية مثل جورنيا . كذلك كان نمو التجارة بطيئاً ، لأن البحار كانت عرضة لغارات القراصنة ، ومنهم الميسينيون أنفسهم . وكان ملوك ميسينى وتيرينز يستخدمون فنانين كريتيين ليحفروا على الأوانى والخواتم ، ما كانوا يقومون به من أعمال القرصنة التى يفخرون بها[٢٥] . وكانوا يبنون مدنهم فى داخل البلاد ليدفعوا عن أنفسهم شر غيرهم من القراصنة ، بعيدة عن البحر بعداً يمكنهم من أن يتقوا الغارات المفاجئة ،

وقريبة منه قرباً يمكنهم من الإسراع إلى سفنهم ، وكان موقع مدينتى تيرينز ، وميسينى على الطريق الممتد من خليج أرجولى إلى برزخ كورنث يمكنهما من فرض إتاوات باهظة على التجار ومن القيام بغارات قرصنة عليهم من حين إلى حين . ولما رأت ميسينى أن كريت قد أثرت من اشتغالها بالتجارة المشروعة ، أدركت أن القرصنة ، كالضريبة الجمركية وليدتها المتحضرة ؛ قد تخنق التجارة خنقاً وتنشر الفاقة فى أوسع نطاق ؛ ولذلك أصلحت أمرها وقبلت أن تتطور القرصنة فتصير تجارة . وما وافى عام ١٤٠٠ حتى بلغ أسطولها التجارى من القوة درجة استطاع بها أن ينازع كريت سلطانها البحرى ؛ فرفضت أن تنقل بضائع ميسينى الذاهبة إلى إفريقية عن طريق الجزيرة وأرسلتها إلى مصر مباشرة ؛ وقد يكون هذا العمل سبباً أو نتيجة لحرب انتهت بتدمير القلاع الكريتية .

ولم تكن الثروة التى أفادتها البلاد من هذه التجارة مصحوبة بثقافة تتناسب معها ، ونستطيع أن نتبينها فيما بقى من الآثار . ونعزو الروايات اليونانية إلى البلاسجيين فضل تعلم الحروف الهجائية من التجار الفينيقيين ، وقد وجدت فى تيرينز وطيبة جرار عليها رموز لم تحل بعد ، ولكن لم تكشف قط ألواح من الصلصال ، أو نقوش ، أو وثائق ؛ وأكبر الظن أن ميسينى حين أرادت أن يتعلم أهلها الكتابة استخدمت فيها مواد سريعة العطب ، كما فعل الكريتيون فى المرحلة الأخيرة من تاريخهم ، ولذلك لم يبق شىء من هذه المواد . ونهج الميسينيون فى الفن نهج الكريتيين ، وقلدوهم فيه بأمانة جعلت علماء الآثار يظنون أنهم كانوا يأتون بكبار الفنانين من كريت ، ولكن يرد على هـذا بأنه بعد أن اضمحل الفن الكريتى ازدهر فن التصوير أيما ازدهار فى أرض اليونان ، فترى النقوش التى تزدان بها أطراف الجدران وحلياتها ترقى إلى المرتبة الأولى فى الفن وتبقى إلى عصر ازدهار الحضارة اليونانية ؛ وكذلك يدل ما بقى من المظلمات على

إحساس قوى بالحيـــاة والنشاط . وترى « النساء اللاتى فى المقاصير » من كبريات السيدات اللائى تزدان بأمثالهن دور التمثيل فى هذه الأيام . وقد صففن شعرهن وارتدين من الملابس ما يتفق مع أحسن طراز فى الوقت الحاضر ؛ وهن أقرب إلى الحياة الحقة من « السيدات الراكبات فى العربة » اللائى خرجن للتنزه فى الحقول آخر النهار وتكلفن الجمود فى ركبتهن . وخير من سيدات المقاصير منظر « صيد الخنازير البرية » وهو نقش من نقوش تيرنز . إن الخنزير والأزهار قد تحكم فى تصويرهما العرف إلى حد لايصدقه العقل ، واللون القرنفلى الغير المعقول قد شوهته بقع أرجوانية وسوداء وزرقاء تتفق مع النمط المألوف وقتئذ ، والنصف الخلفى من الخنزير المندفع فى جريه يدق تدريجاً حتى يشبه عذراء عالية الحذاءين تسقط من عريشة فى قصرها . ولكن المطاردة رغم هذا مطاردة حقيقية ، والخنزير قد أعياه الطراد حتى وصل إلى درجة اليأس ، والكلاب تقفز بأقصى سرعتها فى الهواء ؛ والرجل ، وهو أقوى الوحوش المفترسة عاطفة وأشدها قسوة ، واقف متأهب يرمحه القاتل الفتاك[٢٦] . ومن حق الإنسان أن يستدل من هذه النماذج على ما كان يستمتع به الميسينيون من حياة نشطة ومن أجسام قوية ، وما كان لنسائهم من جمال وما كان فى قصورهم من زينة واضحة جميلة .

وأرقى فنون ميسينى كلها ما كان منها على المعادن ، ففيها بلغت بلاد اليونان ما بلغته كريت ، وبلغ من جرأتها فى هذه الناحية أن اتبعت فيها أشكالها الخاصة وزينتها . وإذا لم يكن شليمان قد عثر بحق على عظام أجممنون ، فقد عثر على ما يعادل وزنها فضة وذهباً . عثر على حلى كثيرة الأنواع ؛ وبكميات تدل على الإسراف الشديد ، وعلى أزرار ذات رؤوس خليقة بأن تكون فى ملابس الملوك ، وحجارة كريمة حفرت عليها مناظر صيد أو حرب أو قرصنة ؛ ورأس بقرة من الفضة البراقة لها قرنان وجبهة من الذهب نقشت عليها ورود ، يتوقع الناظر إليها فى أية لحظة من اللحظات أن تخور خواراً

محزنا ؛ قد يفسره شليمان ، وهو الذى لا يعدم وسيلة لتفسير كل ما يراه ، بأنه اسم ميسينى[٢٧] : وأجمل ما وجد فى تيرينز وميسينى من آثار معدنية خنجران من البرنز مرصعان بمزيج من الذهب والفضة ، ومصفحان بالذهب المجلو المصقول ، وعليهما نقوش تمثل قططاً برية تطارد بطاً ، وأساداً تطارد فهاداً أو تحارب أناسى[٢٩] . وأغرب من هذه كلها الأقنعة الذهبية التى كانت على ما يظهر تغطى بها وجوه الموتى من الملوك . ويشبه أحد هذه الأقنعة وجه قطة ، وقد دفعت شليمان شهامته إلى أن يعزو هذا القناع لأجمنون لا لكليتمنسترا .

ولكن أروع روائع الفن الميسينى بلاجدال لم يعثر عليها فى تيرينز ولا فى ميسينى ، بل عثر عليها فى قبر فى ڤفيو Vaphio بالقرب من أسپارطة حيث كان أحد صغار الأمراء ينافس ملوك الشمال فى التفاخر والعظمة . وقد عثر فى ذلك المكان ، بين كنز آخر من الحلى ، على قدحين من الذهب المطروق بسيطين فى شكلهما ولكنهما بدل فى صنعهما كل ما يستطيع الفنان المحب لفنه العظيم أن يبذله فيه من الصبر والإتقان . وتشبه صناعة هذين القدحين أحسن الصناعة المينوية ، وقد أغرى ذلك بعض العلماء على أن يعزوهما إلى فنان كريتى عظيم بلغ من المنزلة فى كريت ما بلغه تشليني عند الإيطاليين ، ولكننا يحزننا أن تحرم الثقافة الميسينية أحسن ما خلفت من آثار . نعم إن موضوع النقوش التى على القدحين — وهو اقتناص ثور وترويضه — يبدو من الموضوعات التى اختصت بها كريت ، ولكن كثرة هذا المنظر وأمثاله محفورة على الخواتم والأختام الميسينية ، أو مصورة على جدران القصور ، تشهد بأن مصارعة الثيران . كانت منتشرة فى أرض اليونان انتشارها فى الجزيرة . وقد نقش على أحد القدحين منظر الثور وقد صيد فى شبكة من الحبال السميكة ، وفتح فاه ومنخريه وهو لا يكاد يستطيع التنفس من شدة

«الغضب وفرط التعب ، وكلما حاول التخلص من الشرك ضاقت عليه حلقاته ؛ وعلى الجانب الآخر ثور ثان يقفز قفزة الرعب والهلع ، وثالث يهاجم غلاماً من الرعاة أمسكه بشجاعة نادرة من قرنيه . وعلى القدح الثانى يساق الثور المصيد ؛ فإذا أدنا القدح رأيناه قد رضى بقيود الحضارة ، وانهمك على حد قول إيفنز فى « حديث غرامى » مع بقرة[٣١] . وقد مضت قرون كثيرة بعد ذلك العهد قبل أن يظهر مثل هذا الصنع البديع فى بلاد اليونان .

ويوجد الميسينى نفسه ، كما توجد معظم مخلفات فنه ، فى قبوره ، ذلك أنه كان يطوى موتاه ويدفنهم فى جرار غير مريحة ، وقلما كان يحرق جثتهم كما كان يُفعل بها فى عصر الأبطال .

ويستبدل من مخلفاته على أنه كان يؤمن بحياة من نوع ما فى الدار الآخرة ، لأن أدوات ذات قيمة ونفع قد وجدت فى قبوره . وفيما عدا هذا فإن الدين الميسينى ، على قدر ما تكشف لنا من مقدماته ، قوى الدلالة على أنه نشأ من الدين الكريتى أو كان قوى الصلة به ، ففيه — كما فى كريت — نجد البلطة المزدوجة ، والعمود المقدس ، واليمامة الإلهية ، وعبادة أم إلهة ممثلة فى إله غلام لعله ولدها ؛ وهنا أيضاً نجد أربابا صغارا فى صور أفاع . وقد بقيت الأم الإلهة فى بلاد اليونان خلال كل ما حدث فى دينها من تطور وتغيير ، فقد جاءت بعد ريا Rhea الكريتية دمتر Demeter أم اليونان الحزينة ، وبعد دمتر جاءت العذراء أم الإله . وإذا ما وقف الإنسان اليوم على أطلال ميسينى رأى فى القرية الصغيرة القائمة أسفلها كنيسة مسيحية متواضعة ، لقد ولى عصر الأبهة والفخامة ولم تبق إلا البساطة والسلوى .

وازدهرت ميسينى بعد سقوط كنوسس كما لم تزدهر من قبل ، واستخدمت الثروة الطائلة المتزايدة التى كانت « لأسرة القبور البئرية » فى تشييد القصور

الفخمة على تلال ميسينى وتيرينز ، واتخذ الفن الميسينى لنفسه طابعاً خاصا ، واستولى على أسواق بحر إيجه ، ووصلت تجارة أمراء البلاد شرقاً إلى قبرص وسورية ، وجنوباً إلى مصر مارة بجزائر سكلديس ، وغرباً إلى أسبانيا مارة بإيطاليا ، وشمالا إلى نهر الدانوب مخترقة بوئوتيا وتساليا ، ولم يقف فى سبيلها إلا طروادة . وكما أن رومة قد استحوذت على حضارة اليونان ونشرتها فى أنحاء العالم ، كذلك فعلت ميسينى فاستحوذت على ثقافة كريت المحتضرة ونشرت الطور الميسينى من أطوار تلك الحضارة فى عالم البحر المتوسط كله

الفصل الرابع

طروادة

بين كريت وأرض اليونان ٢٢٠ جزيرة منثورة فى بحر إيجة فى دائرة حول ديلوس ، ومن أجل ذلك سميت السكليديس . ومعظم هذه الجزائر صخرى قحل ، وهى بقايا قمم جبال كانت تمتد فى أرض غرق بعضها تحت ماء البحر ، ولكن بعضها كان غنياً بالرخام أو المعادن إلى حد جعل أهله يعملون فى استخراجهما ؛ وأنشأوا فيه حضارة على مر القرون القديمة قبل أن يطل علينا التاريخ اليونانى . وقد قامت المدرسة البريطانية فى أثينة عام ١٨٩٦ بأعمال الحفر فى أرض ميليوس Melos عند فيلاكوبى Phylakopi وعثرت على أدوات وأسلحة وفخار مشابهة شبهاً يثير الدهشة لآثار العصور التى مرت بها الحضارة المينوية عصراً عصراً ؛ واستطاع الباحثون بفضل البحوث التى أجريت فى عصرها من الجزائر أن يرسموا صورة جزائر السكلديس فى عصر ما قبل التاريخ تتفق فى زمنها وصفاتها مع الصورة المستعادة التى رسمها المنقبون لكريت ، وكانت جزائر السكلديس ضيقة الرقعة لا تزيد مساحة أرضها كلها على ألف ميل مربع ، فكانت من هذه الناحية شبيهة ببلاد اليونان عاجزة عن الاجتماع فى قوة سياسية موحدة ؛ ولم يكد يحل القرن السابع قبل الميلاد حتى خضعت هذه الجزائر الصغيرة فى حكمها وفنونها ، بل خضع بعضها فى لغته وكتابته ، لسيطرة الكريتيين ؛ ولما أن حل الطور الأخير من أطوار الحضارة الكريتية (١٤٠٠ — ١٢٠٠) انقطع ما تستورده تلك الجزائر من كريت ، وولت وجهها شطر ميسينى تستورد منها فخارها وأساليبها

وإذا اتجهنا نحو الشرق إلى جزائر أسپورادیس Sporades (أى المتفرقة) ألفينا فى جزيرة رودس ثقافة أخرى فى عصر ما قبل التاريخ من نوع الثقافات

الإيجية البسيطة ، أما فى قبرص فإن رواسب النحاس الغنية التى اشتق منها اسم الجزيرة قد أفاءت عليها قدراً من الثراء دام حتى عصر البرنز (٣٤٠٠ — ١٢٠٠) ، ولكن مصنوعاتها(*) ظلت مع ذلك خشنة غير مهذبة لا تمتاز فى شىء إلى ما قبل السيطرة الكريتية . وكان أهلها الذين يغلب عليهم العنصر الأسيوى يستخدمون كتابة مقطعية شديدة الصلة بالكتابة المينوية ، ويعبدون إلهات تنحدر من إشتار السامية ، وهى التى قدر لها أن تصبح أفروديتى إلهة اليونان[٣٢] . ثم نمت صناعة المعادن فى الجزيرة نمواً سريعاً بعد عام ١٦٠٠ ؛ وأخذت المناجم التى تمتلكها الحكومة الملكية تصدر النحاس إلى مصر ، وكريت ، وبلاد اليونان ؛ وكان المصنع المقام فى إنكومى Enkomi يصنع الخناجر الذائعة الصيت ، وكان الفخرانيون يبيعون آنيتهم المستديرة فى جميع البلاد الممتدة من مصر إلى طروادة . وفى القرن الأخشاب من الغابات ، وأخذ سرو قبرص ينافس أرز لبنان . وفى القرن الثالث عشر أنشأ المستعمرون الميسينيون المستعمرات التى أضحت فيما بعد مدناً يونانية وهى پاثوس Pathos مدينة أفروديتى المقدسة ، وسيتيوم Citium ، مسقط رأس الفيلسوف زينون ، وسلاميس القبرصية التى حط فيها صولون رحاله فى أثناء تجواله ليُحل القانون محل الفوضى .

وعبرت التجارة الميسينية كما عبر النفوذ الميسينى البحر من قبرص إلى سوريا وكاريا ، ومنهما انتقلا عن طريق الشواطئ والجزائر الأسيوية حتى وصلا إلى طروادة . وهناك كشف شليمان ودورپفلد على تل تفصله عن البحر ثلاثة أميال عن تسع مدن كل واحده فوق الأخرى كأنما كان لطروادة تسع حيوات .

١ — فكان فى الطبقة الدنيا بقايا قرية من العصر الحجرى الحديث يصل تاريخها إلى عام ٣٠٠٠ ق . م ، وقد وجدت فيها جدران من الحجارة غير

(*) ثابر على جمعها القائد دى سسنولا di Cesnola ، وهى الآن محفوظة فى المتحف الفنى بنيويورك .

المنحوتة بينها طبقات من الطين ، كما وجدت قواقع حلزونية ، وقطع من العاج المشغول ، وأدوات من الحجر الزجاجى ، وقطع من الفخار المصقول باليد .

٢ — ووجدت فوق هذه الآثار أنقاض المدينة الثانية التى اعتقد شليمان أنها طروادة هومر . وكانت أسوارها المحيطة بها مقامة من حجارة ضخمة كأسوار تيرينز وميسينى ، وكان فى أماكن متفرقة منها حصون وفى أركانها أبواب ضخمة مزدوجة لا يزال اثنان منها باقيين حتى الآن . وهناك أيضاً بيوت باقية تعلو نحو أربع أقدام ، وقد بنيت من الآجر والخشب فوق أساس من الحجارة . ويستدل مما عثر عليه فيها من فخار مطلى بطلاء أحمر ، مصنوع على العجلة ولكنه خشن فج ، على أن هذه المدينة كانت قائمة فى الفترة المحصورة بين ٢٤٠٠ ، ١٩٠٠ على وجه التقريب . وقد حل البرنز فيها محل الحجر فى صنع الأدوات والأسلحة ، وكثرت فيها الحلى ، ولكن التماثيل الصغيرة قبيحة المنظر بدائية الصنع . ويتضح من مخلفات هذه المدينة الثانية على أن النار قد دمرتها ، فآثار النار كثيرة فيها كثرة اقتنع معها شليمان بأن هذا كان من عمل يونانيي أجمنون .

(٣ — ٥) ووجدت من فوق « المدينة المحروقة » بقايا ثلاث دساكر متتالية صغيرة وفقيرة ، لا قيمة لها من الناحية الأثرية .

٦ — وقامت حوالى ١٦٠٠ ق . م مدينة أخرى على هذا التل التاريخى . وقد دفعت السرعة والحماسة شليمان إلى أن يخلط عاديات هذه الطبقة بعاديات الطبقة الثانية ، وأن يصف المدينة السادسة بأنها « مستقر ليدى »[٣٣] لا خطر له ، ولكن دورپفلد واصل الحفر بعد موت شليمان مستعيناً إلى وقت ما بمال شليمان نفسه[٣٤] حتى كشف عن مدينة أكبر كثيراً من المدينة الثانية مزدانة بالمبانى الكبيرة مقامة من حجارة مسواة ، يحيط بها سور يرتفع فوق الأرض ثلاثين قدماً بقيت له ثلاثة من أبوابه . ووجدت فى أنقاض

المدينة مزهريات ذات لون واحد أدق صنعاً من المزهريات التى وصفناها من قبل ، كما وجدت فيها آنية كآنية أوركمنوس Orchomenos المينية Minyan ، وقطع من الفخار شبيهة بما وجد فى ميسينى إلى حد اعتقد معه دورپفلد أنها مستوردة من هذه المدينة الثانية وأنها لذلك معاصرة لأسرة القبور البئرية (١٤٠٠ — ١٢٠٠ ق . م) . ويرى معظم العلماء أن هذه المدينة السادسة هى طروادة هومر مستندين إلى هذه الآثار وإلى عوامل أخرى أقل منها ثباتاً واستقراراً(*)(٣٥) . ويخصون بها « كنز بريام » الذى ظن شليمان أنه عثر عليه فى المدينة الثانية ، والمكون من ستة أساور ، وطاسين ، وتاجين ، وعصابتين للرأس ، وستين قرطاً و ٨٧٠٠ قطعة أخرى كلها من الذهب(٣٦) . ويؤكد لنا المؤرخون أن المدينة الثانية قد دمرتها النار أيضاً حوالى عام ١٢٠٠ ق . م ، ويحدد المؤرخون اليونان حصار طروادة بالفترة الواقعة بين : ١١٩٤ ، ١١٨٤ ق . م(**) .

وبعد ، فمن هم الطرواديون ؟ تذكر إحدى البرديات المصرية اسم الدردنيوين Dardenui بين أحلاف الحثيين فى واقعة قادش (١٢٨٧) ؛ ويحتمل أن يكون هؤلاء هم أسلاف الدردنويين Dardenoi وهم فى لغة هومر الطرواديون أنفسهم(٣٧) . والراجح أن هؤلاء الأقوام ينتمون إلى أصل

(*) يعتقد الدكتور كارل بلجن **Dr. Carl Blegen** مدير أعمال الحفر التى تقوم بها بعثة جامعة سنسناتى فى طروادة (١٩٣١ وما بعدها) على أن مدينة طروادة السادسة قد دمرت حوالى عام ١٣٠٠ ويرجح أن ذلك كله كان بفعل زلزال ، كما يعتقد أن المدينة السابعة قامت فوق أنقاض هذه المدينة . وهو يسمى هذه المدينة السابعة طروادة بريام . أما دورپفلد فيسمى هذه المدينة طروادة رقم ٦ ب ، انظر ماجاء بصحيفة الدراسات اليونانية **Journal of Hellenic Studies** العدد السادس والخمسين ص ١٥٦ .

(**) كانت طروادة السابعة مستقراً صغيراً غير محصن قامت فى ذلك المكان حتى أنشأ (٨) الإسكندر الأكبر فى عام ٣٣٤ طراودة الثامنة تخليداً لذكرى هومر . (٩) وشاد الرومان فى بداية التاريخ المسيحى إليوم أو طروادة الحديدة **Novum Ilium** التى بقيت إلى القرن الخامس بعد الميلاد .

بلقانى ، وأنهم عبروا مضيق الهلسپنت فى القرن السادس عشر مع أبناء عمومتهم الفريجيين واستقروا فى وادى نهر اسكمندر Scamander الأدنى (٣٨) . أما هيرودوت فيوحد بين الطروادين والتيكريين Teucrians وهؤلاء فى رأى اسطرابون أقوام من كريت استقروا فى الصقع الذى بنيت فيه طروادة فيما بعد(*) ، ولعل استقرارهم فى ذلك المكان كان بعد سقوط كنوسس (٤٠). ولقد كان لكريت وطروادة جميعاً جبل مقدس يسمى جبل أيدا « جبل أيدا ذا الفوارات الكثيرة » الذى يذكره هومر وتنيسن Tnnyson . ولقد تعرض هذا الإقليم فى أوقات مختلفة إلى مؤثرات سياسية وجنسية من أرض الحيثيين الواقعة خلفه . وتدل أعمال الحفر فى جملتها على وجود حضارة بعضها مينوى ، وبعضها ميسينى ، وبعضها أسيوى ، وبعضها دانوبى Danubian .

ويصف هومر الطروادين بأنهم كانوا يتكلمون لغة اليونان ويعبدون آلهتهم ، ولكن اليونان المتأخرين عن عصر هومر كانوا يقولون إن طروادة مدينة أسيوية ، وإن حصارها الذائع الصيت هو أول الأحداث المعروفة فى النزاع القائم بين الساميين والآريين ، وبين الشرق والغرب(٤١) .

وأهم من مظهر أهلها وجنسهم موقع المدينة المنيع قرب مدخل الهلسپنت والأراضى الغنية المحيطة بالبحر الأسود . لقد كان هذا الممر الضيق فى التاريخ كله ميدان القتال بين الإمبراطوريات ، وكان حضار طروادة هو معركة غليبولى

(*) ترجع الرواية اليونانية اسم طروادة إلى البطل الإيونيمى تروس Tros والد إيلس Ilus والد لومدون Leomedon والد بريام(٣٩) . وهذا منشأ الأسماء المختلفة التى تطلق على المدينة : تروا س Troas إليوس Ilios إليون Ilion اليوم Ilium . والبطل الأيونيمى أو الإيونيم شخص خرافى فى أغلب الظن ، تعزو إليه جماعة سياسية أو اجتماعية أصلها واسمها . فالدردانيون مثلا يعتقدون أو يدعون أنهم من دردانوس بن زيوس ، ويعزو الدوريون أصلهم إلى دورس Dorus والأيونيون إلى أيون وهلم جرا .

الحديثة نشبت فى عام ١١٩٤ ق . م . وكان السهل القائمة عليه على درجة لا بأس به من الخصب ، وكانت الأرض المجاورة له من الشرق غنية بالمعادن الثمينة ؛ ولكن هذه الثروة وحدها لا يمكن أن تكون سبب ثراء طروادة أو هجمات اليونان عليها . إن أهم من هذا فى رأينا أن موقع المدينة كان يمكنها من فرض المكوس على السفن المارة بالهلسپنت ، وكانت هى فى الوقت عينه بعيدة عن البحر بعداً يجعلها فى مأمن من الهجمات البحرية(٤٢). وربما كان هـــذا السبب لا وجه هلن Helen الجميل هو الذى جردت من أجله ألف سفينة للهجوم على إليوم . وثمة رأى آخر يفسر ثراء طروادة — وربما كان أرجح من الرأى الأول — وهو أن التيارات المائية والرياح الجنوبية فى مضيق الهلسپنت قد جعلت التجار يفرغون بضائعهم فى طروادة وينقلونها براً إلى داخل البلاد ، وأن طروادة قد حصلت من المكوس التى تتقاضاها نظير قيامها بهذا العمل على ما تجمع لها من قوة(٤٣). ومهما يكن سبب هذا الثراء فإن تجارة المدينة نمت نمواً سريعاً كما يستدل على ذلك من اختلاف المصادر التى تنتمى إليها آثارها . فقد كان يأتى إليها من الجزء الجنوبى من بحر إيجة النحاس ، وزيت الزيتون ، والخمر ، والفخار ؛ ومن بلاد الدانوب وتراقية : الفخار ، والكهرمان ، والخيل ، والسيوف ؛ ومن بلاد الصين النائية أشياء نادرة كحجر اليشب(٤٤) . وكانت طروادة تستورد من داخل البلاد المحيطة بها خشباً ، وفضة ، وذهباً ، وحمرا برية ، وتصدرها إلى الخارج .

وكان أهل طروادة « مروضو الخيول » المقيمون فى زهو وخيلاء داخل أسوارهم ، يسيطرون على ما حولهم من البلاد ويفرضون المكوس على تجارتها البرية والبحرية .

والصورة التى تطالعنا فى الإلياذة عن پريام وبيته هى صورة العظمة والعطف الأبوى التى تطالعنا فى أسفار التوراة . فالملك كثير الزوجات ، ولم يكن منشأ هذه الكثرة حب المتعة بل كان منشؤها ما يشعر به من تبعة تفرض

عليه أن يستمر فى إنجاب الأبناء وزيادة عددهم . أما أبناء الملك فيقتصرون على زوجة واحدة ، وكلهم حسنو الأخلاق مستقيمون — إذا استثنينا بطبيعة الحال باريس المرح الذى كان بعيداً عن حسن الخلق بعد ألقبيادس . وإن هكتور Hector ، وهلنوس Helenus ، وترويلوس Troilus لأجدر بالحب من أجممنون المتقلب ، وأديسيوس Odysseus الغدار ، وأخيل المشاكس ، وأندروماك Andromache وبلكسينا Polyxena لا تقلان سحراً وفتنة عن هيلين وإفجينيا Iphigenia ؛ وهكيبا أحسن قليـــلا من كليتمنسترا . والطروادیون فى جملتهم كما يصورهم أعداؤهم يبدون فى نظرنا أقل خداعاً ، وأكثر وفاء ، وأحسن تهذيباً ، من اليونان الذين غلبوهم على أمرهم . ولقد أحس الفاتحون أنفسهم بهذا التفوق فى أواخر أيامهم ؛ ولم يبخل هومر على أهل طروادة بكلمة طيبة ؛ ولم يترك سافو Saphe ولا يوربيديز شكا فى الناحية التى يريان أنها خديعة بعطفهما وإعجابهما .

ولقد كان من دواعى الأسف أن يعترض هذا الشعب طريق بلاد اليونان المتوسعة التى جاءت ، رغم عيوبها الكثيرة ، إلى هذا الإقليم وإلى غيره من أقاليم البحر المتوسط فى آخر الأمر بحضارة أرقى من كل الحضارات التى عرفها من قبل .